كتب جديدة

في القومية العربية

«ابحاث مختارة في القومية العربية» بقلم ساطع الحصري. دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٤

« هذه قوميتنا » بقلم عبد الرحمن البزاز. دار القلم، القاهرة، ١٩٦٤

محاولتان للتوغل في غابة عذراء على صعيد من المصطلحات البكر التي لا تزال تفتقر الى مفاهيم محددة تحدد مدلولها تحديدا واضحا يتمتع باجماع القبول.

اما الغابة العذراء – ولعلها ليست كذلك في رأي بعضهم – فهي موضوع تبيان ماهية القومية العربية والمعالم الفارقة في هويتها. اما صعيد المصطلحات البكر فهو الصعيد الذي يشكو الكثيرون من الكتّاب والقراء من كونه مشوش المعالم، احتمل، ولا يزال يحتمل، كثيرا ومزيدا من الاجتهادات. فهنالك افتقار الى اجماع على مدلول كلمات اساسية، مثل « القوم» و « الشعب » و« الامة» و«الوطن»، وغير ذلك من المصطلحات التي يقوم على شرحها اي مقال في القومية.

وليس الغرض هنا عقد مقارنة بين المحاولتين، بين محاولة الدكتور عبد الرحمن البزاز في فصول كتابه « هذه قوميتنا » ومحاولة ساطع الحصري في فصول كتابه « ابحاث مختارة في القومية العربية »، انما الغرض تقديم عرض لخلاصة افكار الكاتبين مع الاشارة الى ان ثانيهما هو اقدم عهدا من بين الكتّاب الذين حاولوا ان يعالجوا موضوع القومية العربية معالجة علمية، والى انه اغنى الفكر العربي بما ادخل من مصطلحات ومفاهيم نتيجة تأثراته الفكرية عبر مطالعات غربية يستطيع القارىء ان يحس بانها كانت ثرية ومضنية وواسعة؛ ومع الاشارة الى ان اولهما قد وضع كتابه كمحاضرات مدرسية لمصلحة طلاب معهد الدراسات العربية العالية في سنة ١٩٦١ – ١٩٦٢. وهكذا فان توقيته الزمني يتسم بحداثة العهد، بينما ترجع بعض فصول كتاب الحصري الى ما قبل الثلاثينات من هذا القرن، اي حينما كانت القومية كموضوع مجرد طائرا غريبا على شجرة الفكر العربي.

ولكن هل باتت الشجرة تتجاوب تجاوبا موحدا مع تغريدات هذا الطائر؟ بالطبع لا. ولكن كتابي الحصري والبزاز يتضافران على تأليف تجاوب موحد.

والواقع ان قراءة مقارنة للكتابين توفر كثيرا من الادلة ليس فقط على ان البزاز، حتى نهاية الثلث الثاني من كتابه الضخم (٤٤٧ صفحة)، استقى كثيرا من الحصري، بل انه تأثر به واتخذه منطلقا واخذ عنه اصولا اكثر من ايجاد التفريعات لها. ولكنه ظل اكثر تسامحا وتفتحا من استاذه الروحي – اذا صحت التسمية: فهو لا يتحرج، خلافا للحصري، عن اعتماد بعض آراء النظريين الشيوعيين الحديثين مثل ارنولد فان جنييت و رينيه جوهانيه (« هذه هي القومية »، ترجمة محمد عيتاني) وغيرهما، وبخاصة فيما يتعلق بدعم العامل اللغوي كاحد مقومات القومية.

ولقد شدد البزاز بصورة خاصة على غموض مصطلح القومية وما يخالطه من مصطلحات اخرى، وطالب ببذل جهد عربي مشترك لوضع المفاهيم الصحيحة واشاعتها، وان كان قد غفل عن ان تنافر الانظمة الحاكمة في البلاد العربية يوجب اختلاف التفسيرات ويحول دون توحيدها. « فالحقيقة الاجتماعية – وفقا لاستشهاده برأي فان جنييت و جوهانيه – المقصودة عادة بكلمة « قومية » معقدة مركبة من ناحيتي الشكل والمحتوى قابلة للتحويل والتغير بتغير الزمان والمكان ».

واسهم، كما فعل من قبل الحصري بالاعتماد على

المراجع الفرنسية ، في ايضاح الفوارق الدقيقة بين كثير من المصطلحات بالاستناد الى المراجع الانكليزية عن طريق شرح تطور المعنى اللغوي وتطور الاستخدام العرضي للوطنية والجنسية والقومية . واعتمد كلمة « ريس » كما فعل الحصري تعريبا لكلمة الجنس او العنصر . وفي هذا فان البزاز و الحصري يتضافران على التشديد على رابطة اللغة كمقوم فعال في القومية . ويذهب البزاز في تعريف العربي الى القول: « من هو العربي؟ هو الذي يتكلم اللغة العربية بشعور ان العربية هي لغة امته بغض النظر عن الاصول البعيدة او القريبة التي تحدر منها » .

وانطلاقا من هذا التحديد يهاجم نظرية«المشيئة او الارادة »،باعتبارها تعطي سندا شكليا لنزعات الانفصال التي تفرضها سياسات بعض الحكام الانانيين او تفرضها رغبات قلة مسيطرة الخ. وبالتالي تظل نظرية وحدة اللغة افضل مستند لتوحيد شعوب القومية العربية .

ان التشديد هنا على آراء البزاز ليس عفويا بل مقصودا : ليس لانه يدخل شيئا كثيرا جديدا بل لانه يمثل الجيل التالي لمدرسة الحصري ، ويمثل التطوير الذي يستقي من مؤثرات فكرية انكليزية اللغة .

ومن غير انتقاص للبزاز، يمكن القول ان مكانة الحصري في صعيد الابحاث في موضوع القومية في غنى عن الاشادة بها والتشديد عليها . فالحصري لم يكن فحسب رائدا اولا في هذا المضمار بل لايزال يتقدم الرواد ولا يزال يثبت انه متتبع عن كثب لتطورات الفكر العالمي .

وكما يدل عنوان كتاب الحصري،«ابحاث مختارة في القومية العربية » ، فان للمؤلف يدا طولى في تنسيق الفصول وانتقائها من محصول غزير من الانتاج بدأ قبل سنة ١٩٢٨ واستمر الى يومنا هذا .

ولقد حاولت ان اقرأ هذا الكتاب ليس حسب ترتيب فصوله بل حسب تأريخ تلك الفصول ، باعتبار ان التسلسل التاريخي لتلك التآليف يعطي صورة مترابطة عن التطور في تفكير ساطع الحصري كمتكلم ونظري ورائد في صعيد معالجة موضوع القومية العربية على اسس علمية او على اسس هي الى العلم الحديث اقرب .

وان قراءة على هذا الشكل تشدد ، رغم عدم كفاية النماذج لاتخاذ رأي قاطع ، على خاصة المثابرة والانسجام . فما قاله الحصري في محاضرته«عوامل القومية » التي القاها سنة ١٩٢٨ في نادي المعلمين ببغداد ينسجم في جوهره وتفصيله مع ما قاله في محاضراته في معهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة سنة ١٩٥٣ وفي « حول القومية العربية » الصادر سنة ١٩٦١ عبورا بما نشره في « الرسالة» وبخاصة ردوده على طه حسين وتسفيهه لنظرية رابطة حوض البحر الابيض المتوسط . ونحسب ان اقدمية انتاج الحصري وانسجام البزاز في كتاباته الحديثة مع منطلقات الحصري بالذات ، وهي منطلقات قديمة العهد ، ينفيان ثنائية النظرة في هذا البحث . فالاختلاف في المنشأ الثقافي والتأثرات الثقافية بينهما لم يمنع ولا يمنع من ان الكتابين متكاملان .

واذا كان الكاتبان قد اختلفا في النظر الى بعض التفصيلات من بعض زواياها فانهما يتضافران على التشديد على امور جوهرية عدة، منها رسوخ القومية العربية في مصر كعقيدة حياة وليس كستراتيجية سياسية ، ومنها التشديد على الاهمية الحيوية الجوهرية للمشاركة المصرية بعد ان اخذت مصر تعي عروبتها وتندفع الى العمل بهديها .

وفي ذلك يحفل الكتابان بشواهد كثيرة وطريفة على التبدل الذي طرأ في مصر على النظرة الى القومية العربية وعروبة مصر . وبينما يحفل كتاب الحصري بشواهد سياسية وبشواهد فكرية عن عهد ما قبل ثورة ١٩٥٢ ، فان كتاب البزاز، وبخاصة مقدمته، يحفل بكثير من الشواهد والمقتبسات على تخبط ظل مستمرا حتى ١٩٦٠ – ١٩٦١ في تعريف القومية والفهم الصحيح لدور مصر العربي ، وذلك على مستويات ثقافية وعلمية عليا .

ان الاجتهاد الحر مسؤول عما يشكو منه البزاز، الذي انتهج اجتهادا حرا في صعيد دقيق ، قد يحتمل حرية الفهم ولكنه لا يحتمل حرية التخريجات الكيفية .

وقد تكون نقطة الضعف البارزة في اجتهادات البزاز تكمن في بعض بحثه في « خصائص القومية العربية » : فهو يرى ان « للقومية العربية خصائص

اساسية عديدة اهمها : الكلية (وهي عنده بمعنى الشمول وليس بالمعنى السياسي المألوف) والديمقراطية والاشتراكية والتقدمية ... وهناك صفات اخرى كالتعاونية والثورية والايجابية والحركية ».

كوكتيل من المشروبات اللاذعة الحريفة والحلوة الجارحة ! او محاولة لجمع عوامل سلبية التناقض على اساس ان الجمع بين السالب والسالب ينتج ايجابا . ولكن هل تكون صورة القومية كما يرسمها البزاز عبر هذا الخليط صورة ايجابية تستهوي الافئدة بكليتها مثلما تستهويها جزئياتها ؟

فالبزاز - عن قصد او غير قصد - يجنح الى التعميم والتجريد في اختياره المواصفات اختيارا حرا . وهو بذلك يأخذ من نظام ما احسن محاسنه - تماما كما يفعل الرسام الذي يحاول ان يرسم صورة الوجه الاجمل حسب مقاسات الجمال التجريدية لكل جزء ، فيجمع اجمل فم الى اجمل انف واجمل عينين واجمل جبهة واجمل اذنين واجمل ذقن . فتكون النتيجة وجها ليس غير واقعي فحسب ، انما تكون وجها غير جميل اطلاقا .

فمن « الكلية » يأخذ خاصة انها « ليست قومية للافراد الموصوفين بصفة معينة ، اي ليست لطبقات اجتماعية او ثقافية... بل انها عقيدة العربي حيث هو عربي وكفى » . وذلك يمنع في رأيه الحروب الطبقية وينفيها . ولكنه سرعان ما يناقض نفسه بعد ١٧ سطرا (راجع صفحة ٢٦٠ و ٢٦١) حين يقول من بين ما يقول : « ان هذه النظرة للقومية العربية ضد الاقطاع مهما تباينت اشكاله وضد الاستغلال والتحكم الخ » .

وبالتالي فانه فرض على هذه « الكلية » طبيعة اشتراكية ، وقد تكون دوافعه الوضعية الى ذلك حسنة ، الا اننا لا نستطيع في المقام العلمي ان نقدم المصطلحات على هوانا معتمدين ما نراه من حسنها : فهذا مما يزيد من التشويش الذي كان يكتنفه منه في مطلع كتابه .

و« الكلية » عند البزاز لا تقتصر على هذا الموقف السياسي ، انما تتعداه الى معنى الشمول الجغرافي الذي يبتلع النزعات الاقليمية ويكتسحها ، والى معنى للاشتراكية ملازم للقومية .

اما من حيث الخاصة الديمقراطية فان البزاز لا ينيرنا كثيرا - الا على الصعيد التجريدي الذي يحتمل تأويلات لا نهاية لها - بغير التجريدات والمطلقات حين يقول : « ان الديمقراطية التي اعتبرها خصيصة اساسية لقوميتنا العربية تعني الايمان بالشعب في حدود المعنى الاجتماعي والعمل الجماعي من اجله وفي سبيل تحقيق ارادته الكلية الكامنة في قرارة نفسه » .

هذا واذا كان المؤلف يوصي بمبدأه الثوري فانه لا يشير الى كيفية تأمين اسبابه، ويتسامح في تطبيق الديمقراطية جزئيا وبالقدر اللازم ، على اساس ان « الديمقراطية ليست مطلقة » . وهو لذلك يترك لفئة النخبة المناضلة امر تقرير ما يلزم من الديمقراطية: « فلا بد ان تكون مقيدة بالصالح العام ... والمهم في هذا كله هو الاهتمام باللباب دون القشور الخ ».

واذا كان التوفيق لم يلازم البزاز في رسم معالم الخاصة الاشتراكية الواضحة للقومية العربية فقد وجد مخرجا لبحثه السريع في التوصية بجعلها تجريبية ظرفية غير متزمتة . « فالقومية العربية تدعو الى اشتراكية رشيدة تحقق التعاون التام بين ابناء المجتمع كله ، وتقف وسطا بين الفردية المطلقة التي ادت الى قيام الرأسمالية المتحكمة والشيوعية القائمة على اساس من الماركسية الهادفة الى التفسير المادي للتاريخ الانساني كله والقائلة بحتمية الصراع الطبقي بين ابناء المجتمع » .

وتناقض آخر يقع فيه البزاز حينما يقول بوجوب «النظر الى القومية العربية مجردة عن نوع الحكم»، بينما يحدد خصائصها بالتحررية والتقدمية والاشتراكية والكلية الخ ، مما ينعكس بالضرورة في اي نظام للحكم ينبثق عنها في صورة خصائصها تلك .

ولعله يمكن تصنيف البزاز بمتكلم ليبرالي ، من حيث كونه لا يرى ضرورة قيام حكومة مركزية واحدة كشرط لانتصار القومية، انما يكتفي بكيان عربي عام مشترك تحتفظ اجزاؤه بسلطاتها المحلية وتحتفظ بعض اجزائه - لاغراض وآماد مختلفة - بسيادة دولية على غرار روسيا البيضاء و اوكرانيا.

وهو في هذا الرأي يلخص « رسائل الاتحادي » لهاملتون وماديسون وجي، ولكنه لا يشير الى هذا المصدر بشيء .

ومهما يكن من امر فان الجهد العلمي الجدي الذي اسهم ويسهم به المؤلفان هو مما يدعو الى الغبطة ،

فقد آن الاوان ان تخرج التعريفات من نطاق التجريد الى نطاق التركيز المفهوم، وبخاصة في هذه المرحلة التي تشهد تطورا في النظرة الفلسفية العربية والعالمية الى مفهوم القومية .

وان انسجام الكتابين في المحتوى والنظرة لا يعني انهما جهد مكرر ، انما ينطوي على اسلوبين من الاجتهاد . فاسلوب الحصري يعتمد التبسيط المنطقي ، واسلوب البزاز يتميز بزخم الشباب والاعتداد على صعيد من المناقشة المنطقية التي تتلاشى في نهايتها قوة الكاتب والخصم والقارىء .

مروان الجابري

دور العرب في تكوين الفكر الأوربي ١

بقلم عبد الرحمن بدوي . دار الآداب ، بيروت ، ١٩٦٥

لا شك ان موضوع هذا الكتاب من اهم الموضوعات الحية المعاصرة ، التي تطرحها مرحلتنا التاريخية الراهنة بشيء كبير من الاصالة . ذلك ان العلاقة القائمة بيننا وبين الغرب في الوقت الحاضر، في مختلف وجوهها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ليست الا نتاجا لقرون طويلة من التفاعلات الحضارية التي تمت بيننا وبين اوربا على مدى الزمن .

فالمثقف العربي المعاصر يشعر ولا ريب بان العلاقة التي تربطه باوربا الآن ، ليست علاقة طارئة، وانما هي علاقة لها جذورها العميقة الغائرة في الوجدان العربي . ولربما كان الوجه الثقافي لعلاقاتنا باوربا هو اكثر الوجوه حساسية ، اذ يؤدي في كثير من الاحيان الى ما يشبه مركب النقص او العقدة النفسية التي يسمونها بعقدة الخواجة ، وهي ليست في واقع الامر الا بمثابة رد الفعل الذي يصدر في عفوية كاملة عن الانسان الذي يعيش في ظل حضارة متخلفة نسبيا ازاء الحضارات المتقدمة .

من هنا نبعت الحاجة لدى المفكرين العرب والمثقفين في بلادنا ، الى ايضاح طبيعة العلاقة التي تكونت على مر الايام بين الوجدان العربي والحضارة الاوربية. اذ ان تحليل شكل هذه العلاقة ومضمونها، من شأنه ان يؤدي الى فهم جديد لدورنا في الماضي والحاضر والمستقبل ، وبالتالي فانه يؤدي الى تلاشي كافة مركبات النقص وافناء العقد النفسية . فنحن اذا تقصينا بدقة وعمق تخوم ذلك المنهج القائل بان الحضارات المختلفة تتفاعل فيما بينها بصورة لا تمنح الفرصة لاي منها ان تتميز عن غيرها ، ما دامت هذه الحضارة او تلك تأخذ كما تعطي ، فان هذا المنهج نفسه لن يعطي لاي انسان يستظل باية حضارة كانت ما يصيبه بالغرور او الاحساس بالنقص.

لهذه الاسباب يأتي كتاب الدكتور بدوي في موعده تماما ، ليزيح الستار عن الدور الباهر الذي قامت به الفلسفة الاسلامية والعلم والادب العربيان في تكوين الفكر الاوربي ابان تلك المرحلة التي يدعوها الاكاديميون بالقرون الوسيطة ويدعوها المخطئون بالعصور المظلمة .

والكتاب مقسم الى استهلال من ثماني نقاط : هي اثر الادب والعلم والتصوف والفلسفة والمعارف العلمية والموسيقى والمعمار في تكوين الفكر الاوربي، ثم المصادر الاسلامية « للكوميديا الالهية » ، فابن خلدون ونظرية العمل والقيمة ، وبعد الاستهلال نقرأ تحت عنوان « العرب والتراث اليوناني » عن العلاقة بين ابن خلدون وارسطو ، و الكندي ومعرفته باليونانية ، وموفق الدين البغدادي ودوره في احياء التراث اليوناني ، واكتشاف العرب لغيوم ماجلان .

والكتاب يبدو لاول وهلة وكأنه دراسة بيبليوغرافية تلتزم التحقيق العلمي الاحصائي بالارقام والنصوص ، ولا يعنيها التحليل الشارح للارقام والنصوص . الا ان القراءة المستأنية للكتاب تؤكد وجهة نظر المؤلف من خلال المنهج الاكاديمي الذي اختاره عمادا لبحثه . ولعل هذا المنهج هو الاضافة الحقيقية التي يثري بها عبد الرحمن بدوي المكتبة العربية في هذا الباب . فقد عالج الكثيرون نفس